



خطبة صلاة الجمعة 6 / 11 / 2020 للشيخ الطيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

(هدي رسول الله ﷺ في الشدائد والحن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفية وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

قال النووي في شرح مسلم: (قوله "خير الهدي هدي محمد" جاءت الرواية بوجهين؛ الأول: بفتح الهاء وإسكان الدال، ومعناه الطريقة، أي أحسن الطرق طريق محمد، يقال فلان حسن الهدي أي الطريقة والمذهب، والثاني: بضم الهاء وفتح الدال فيهما، ومعناه الدلالة والإرشاد).

وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنُ الهديِ هديُّ محمدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتها، وإنَّ ما تُوعَدُونَ لآتٍ، وما أنتم بمعجزين».

قال ابن منظور: فَلَانْ حَسَنُ الْهَدْيِ هُوَ حُسْنُ الْمَذْهَبِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ أَيْ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ وَالْهَدَايَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالنَّحْوِ وَالْهَيْئَةِ، هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الرابعة في سلسلة خطب عنواؤها: (هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). جاءت السلسلة في شهر ربيع لنكثر من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنهتدي بهديه ونتأسى بسنته فننال الخطوة بشفاعته صلوات ربي وسلامه عليه. واعلموا أن الكمال البشري معقود في رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اهتدى بهديه واستن بسنته وحذى حذوه صلى الله عليه وسلم سار في درب الكمال، وعكسه بعكسه. تحدثت الخطبة الأولى عن هديه صلى الله عليه وسلم في العبادات الشعائرية، والثانية عن هديه صلى الله عليه وسلم في المعاملات المالية، والثالثة عن هديه صلى الله عليه وسلم في العلاقات الأسرية، وعنوان خطبة اليوم: هدي رسول الله ﷺ في الشدائد والحن.

أيها الإخوة:

مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم شدائد وأزمات كثيرة، فقد وُلد صلى الله عليه وسلم يتيماً ثم فَقَدَ أُمَّهُ الرؤوم وجده العطوف ثم فُجِعَ بزوجته المناصرة وعمه المنافع. وذاق مرارة فَقْدِ الأولاد، ومرض وحوصر وشج وجهه وكسرت رباعيته وأرجف المنافقون على أهله الأراجيف. استهزئ به وشتم، وأوذى وحوصر، وأُخِيفَ وَخُنِدَقَ على نفسه، وقل ماله، وعز نصيره، وأُسِرَ أصحابه وافتقر وجاع. هُدِدَ بالقتل وأُخْرِجَ من داره وبلده. لقد أصيب نبينا صلى الله عليه وسلم بكل ما يصاب به المرء في الدنيا من مَحَنٍ وَشِدَائِدٍ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ الْكَرْبَ الَّذِي أَصَابَهُ، وَالْأَلَمَ الَّذِي عَانَاهُ، وَإِلَيْكُمْ مَعَالِمٌ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ وَالْحَنِّ: أولاً: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَأْلَمُ ولكنه صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ: تَذَكُّرُونَ -أيُّهَا الإخوة- فَقَدَهُ لَوْلَدَهُ الرَّضِيعَ إِبْرَاهِيمَ، فَاضَتْ رَوْحُ الْوَلَدِ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزُنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمَ إِنَّا بِكَ لَحَزُونُونَ.

يَا أَلَمْ، وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.

ولما سَلَطَ أَهْلُ الطَّائِفِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَبِيَاهُمْ وَمَجَانِينَهُمْ وَرَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ وَأَدْمَوْا جَسَدَهُ الشَّرِيفَ وَسَبُّوهُ وَسَخَرُوا مِنْهُ وَشَتَمُوهُ، أَوَى إِلَى بَسْتَانِ الْفَتَى النَّصْرَانِيِّ عَدَّاسٍ، دَعَا الدُّعَاءَ الْمَشْهُورَ الَّذِي تَقْرَأُ فِيهِ أَلَمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَبْرُهُ وَرِضَاهُ عَنِ اللَّهِ:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَايَ عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمْتُ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَنْجِهُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أُمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» [رواه الطبراني].

يَا أَلَمْ، وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.

فَلَا هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْزَعُ، وَلَا هُوَ يَيْئَسُ، وَلَا هُوَ يَتَّهِمُ اللَّهَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، بَلْ إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاثِقٌ بِمَوْعِدِهِ لَهُ وَلِلْعَصْبَةِ الْمُؤْمِنَةِ مَعَهُ بِأَنَّ النَّصْرَ وَالتَّمَكِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ دُونِ الْبَاغِينَ الظَّالِمِينَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ وَهُوَ فِي أَكْثَرِ مَوَاطِنِ الْخَوْفِ وَالْأَلَمِ فِي أَثْنَاءِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ حِينَ لَمَعَتْ تَحْتَ الْمَعُولِ ثَلَاثُ لَمَعَاتٍ: «أَمَّا الْأُولَى: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ؛ وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ» [البيهقي].

قال عندها المنافقون: نحن نُخَنِّدُكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَهُوَ يَعِدُنَا قُصُورَ فَارَسَ وَالرُّومِ؟!

لَكِنَّ مَوْعِدَ اللَّهِ جَاءَ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ.

هَذَا أَوَّلُ هَدْيٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ: (يَا أَلَمْ، وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ).

ثَانِيًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ وَيَأْوِي إِلَيْهِ:

فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ حَذِيفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ يَدْعُو» [جامع الأصول].

وَتَذْكُرُونَ دَعَاءَهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الصَّغْفَرِ فِي بَدْرِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

رضي الله عنه قَالَ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرِ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ

ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَبِيلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ:

«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ

فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَاذَا يَدِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ التَّرَمَّهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَثَرَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:9]، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ).

وقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْالتَّجَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ عِنْدَ الْقَحْطِ رَجَاءُ السُّقْيَا، وَعِنْدَ الْجُوعِ رَجَاءُ الشَّبَعِ، وَعِنْدَ الْمَصَابِ رَجَاءُ الْعَافِيَةِ، وَعِنْدَ الْكُسُوفِ رَجَاءُ انْجِلَاءِ السَّمَاءِ...

فَالثَّانِي مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْحَنِّ: (أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ وَيَأْوِي إِلَيْهِ).

ثَالِثًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ، لِدَفْعِ الْقَدَرِ بِالْقَدَرِ:

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْاسْتِسْلَامُ وَالْقُعُودُ، بَلِ الْعَمَلُ وَالْاجْتِهَادُ، فَهُوَ صَلَوَاتِ رَبِّي وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ فِي الْأَحْزَابِ يَحْفَرُ الْخَنْدَقَ فِي خُدْعَةٍ حَرْبِيَّةٍ لَمْ تَعْهَدْهَا الْعَرَبُ مِنْ قَبْلُ، وَفِي الْهَجْرَةِ يَخْرُجُ مُتَسَلِّلاً فِي جَنْحِ اللَّيْلِ وَيَتَخَفَّى فِي غَارٍ ثَوْرٍ أَيَّاماً حَتَّى يَهْدَأَ الطَّلَبُ، وَفِي الْمَرَضِ يَطْلُبُ الطَّبَّ وَيَتَعَاطَى الدَّوَاءَ، وَفِي أَيَّامِ الْمَدِينَةِ الْأُولَى يَضَعُ الْحَرَسَ عَلَى بَابِهِ وَالْبِتْلَاحَ فِي أَهْبَتِهِ، وَيَحْتِثُّ أَصْحَابَهُ عَلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ، وَيَثَبِّتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَزْمَاتِ، وَيُرْسِلُ الْعْيُونَ لَتَقْصِي الْأَخْبَارَ، وَيَشِدُّ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَيْنِ، وَيَتَزَوَّدُ لِلسَّفَرِ وَيَدَّخِرُ شَيْئاً لِلْحَضَرِ، وَيَعْلَمُ أَصْحَابَهُ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ. كُلُّ هَذَا مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، ثُمَّ يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِخَالِقِهَا.

فِي سُورَةِ الْإِنْشِرَاحِ جَاءَتْ آيَاتُ الْعَسْرِ دَاعِيَةً إِلَى الْعَمَلِ وَالنَّصَبِ لَا الْقُعُودِ وَالْعَطَبِ، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ

فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7، 8]، ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَزْمَاتِ وَالشَّدَائِدَ تَقْتَرِنُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِأَوْقَاتِ فَرَاغٍ طَوِيلَةٍ، فَأَعْقَبَ آيَاتُ الْعَسْرِ الْحَدِيثُ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْعَمَلِ الْجَادِّ فِي وَقْتِ الْفَرَاغِ. وَهَذَا هَدْيُهُ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ وَالْحَنِّ أَنَّهُ يَعْمَلُ وَيَأْمَلُ وَيَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ وَيُدْفِعُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ.

وَبَعْدَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ:

هَذِهِ ثَلَاثَةٌ فِي هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْحَنِّ.

أَوَّلًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمَلُ وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.

ثَانِيًا: كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ وَيَأْوِي إِلَيْهِ.

ثَالِثًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ، لِدَفْعِ الْقَدَرِ بِالْقَدَرِ..

فليصبر أهل البلاء فإن عاقبة الصبر خير، ولنفرع جميعاً إلى الله تعالى ضارعين تائبين، ولنأخذ
بالأسباب وسعنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

والحمد لله رب العالمين